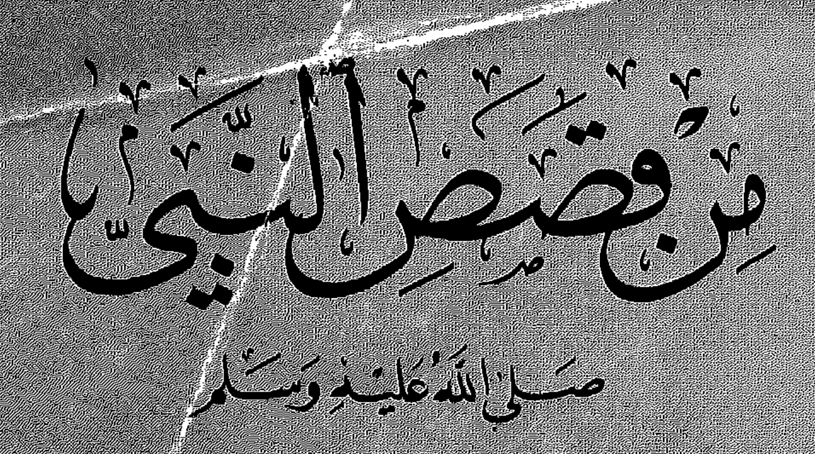
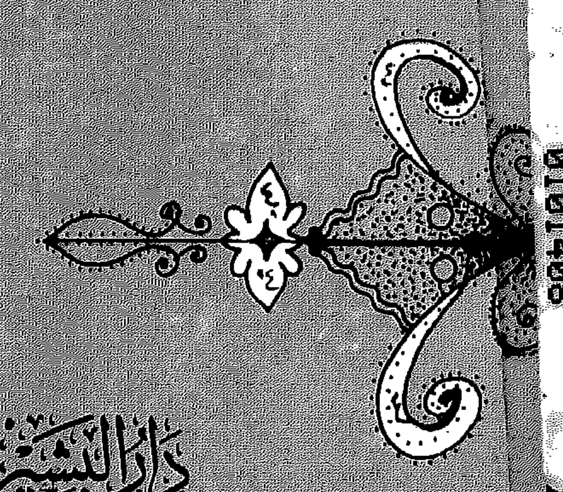


من قصص النبي

صلى الله عليه وسلم

د. مأمون فريز جرار





دار البشير

مِنْ قَصَصِ النَّبِيِّ ﷺ

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

٢١٩
مأم مأمون فريز جرار
من قصص النبي عليه السلام/ مأمون فريز جرار.-
عمّان: دار البشير للنشر، ١٩٩٢م
(٨٤)ص
ر.أ(٢٣٧/٤/١٩٩٢)
١- السيرة النبوية أ- العنوان
(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

دار البشير
ص.ب (١٨٢٠٧٧) / (١٨٣٩٨٢)
هاتف: (٦٥٩٨٩١) / (٦٥٩٨٩٢)
فاكس: (٦٥٩٨٩٣) / تلكس (٢٣٧٠٨) بشير
مركز جوهرة القدس التجاري / العبدلي
عمان - الأردن

Dar Al-bashir
For Publishing & Distribution
Tel: (659891) / (659892)
Fax: (659893) / Tlx. (23708) Bashir
P.O.Box. (182077) / (183982)
Jerusalem Jewel Trade center Al-Abdali.
Amman - Jordan



د. مأمون فريز جرار

دار البشير



المقدمة

لم تزل قصص القرآن، وما قصَّةُ رسول الله ﷺ مورداً للمتأدبين.. يصوغون هذه القصص بأقلامهم... محللين ومفصلين... يعملون الخيال في تصور ما كان.. من تفصيلات لم ترد في القصص... يريدون بذلك تقديم زاد من الأدب النظيف المفيد إلى القراء.. في مواجهة هذا الكم الهائل من الأدب الهابط!

ولكل كاتب أسلوبه.. وخياله... وقد سبقني في صياغة بعض القصص النبوية كتاب... وها أنا أدلي بدلوي في هذا السبيل عسى الله أن يكتب لي الأجر... ويحسن لي الذخر..

وقد قدمت بين يدي كل قصة كتبتها النص الوارد في بعض كتب الحديث.. ليطلع القارىء على الأصل الذي انطلقت منه في الكتابة..

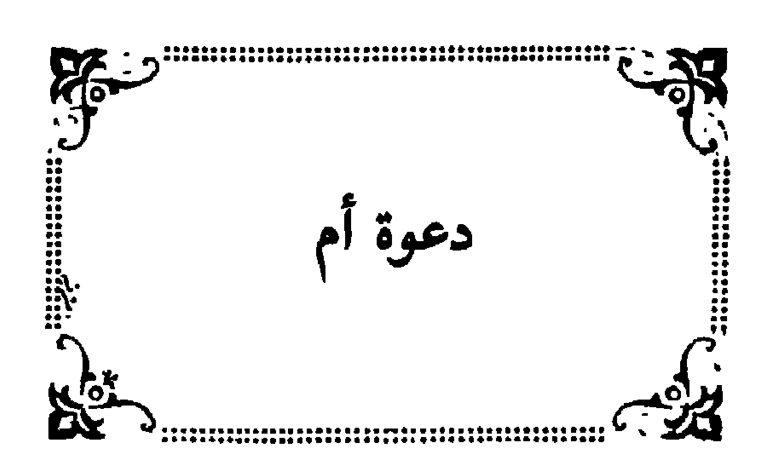
ويلحظ القارىء أنني أقدم بعض ما ورد من القصص النبوي... فإن وجد ما كتبته قبولاً... فعسى أن يحفزني

ذلك إلى المزيد من العطاء. . .

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

مأمون جرار





دعوة أم

حديث جريج

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم وصاحب جريج(*)، وكان جريج رجلاً عابداً فاتخذ صومعة فكان فيها، فأتته أمه وهو يصلّي فقالت: يا جريج، فقال؛ يا رب! أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت.

فلمّا كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: يا رب! أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت.

فلمّا كان من الغد أتته وهو يصلي فقالت: يا جريج، فقال: أي رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته،

فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر وجوه المومسات! فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته، وكانت امرأة بغيّ يُتَمَثَّلُ بحُسنها فقالت: إن شئتم لأفتننّه لكم، قال: فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأتت راعياً كان يأوي إلى

(*) والثالث هو الوارد في القصة التالية: الرضيع الحكيم.

صومعته فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت، فلما ولـدت قالت: هو من جريج، فأتـوه فاستنـزلـوه وهـدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زنيت بهذه البغيّ فولدت منك، فقال: أين الصبي؟ فجاؤوا به، فقـال: دعـوني حتى أصلي، فصلى، فلما انصرف أتى الصبي فطعن في بطنه وقال: يا غلام، من أبوك؟ قال: فلان ـ الراعي.

قال: فأقبلوا على جريج يقبلونـه ويتمسحـون به، وقـالـوا: نبني لك صومعتك من ذهب وفضة، قال: لا، أعيدوها من طين كما كانت. ففعلوا.

مختصر صحيح مسلم

باب بر الوالدين

ص: ٤٦٨



نظر جريج في حال أهـل بلدتـه فأصـابه شيء من اليأس!! «كيف أعيش مع قوم لا يخـافـون الله؟ يأكلون الربا، وفشا فيهم الزنا، وانتشرت الموبقات؟ لقد أمرتهم ونهيتهم فما ازدادوا إلّا إثماً، وأخشى إن بقيت معهم أن أخوض فيما هم فيه. . أو يصيبني عذاب يحل بهم!!».

وابتنى جريج لنفسـه صومعة في طرف بلدته، يطلّ عليها ولا يخالط أهلها، يدعو لهم بالهداية والرشاد، ولكنه لا يشاركهم ما هم فيه من الحرام!

وكان الناس يعجبون من جريج، هذا الشاب العابد، الذي ترفّع عمّا فيه أقرانه من اللهو والإغراق في اللذات. وكثيراً ما كانـوا يمـرون به، يسـألـونـه دعوة صالحة، أو يسترشـدون برأيه في بعض الأمـور. واشتدّ ذلك بمرور الأيام. . حتى صارت صومعته مطهراً للعصاة التائبين. . وتحقق له ما أراد من حماية نفسه، وإعطاء القدوة الصالحة للناس. . .

وراع ذلك أهل الفساد في بلده. . . فأخذوا يكيدون له أمراً. . !!

* * *

وكان لجريج أم عجوز، يخرج إليها بين حين وآخر، يقضي لها بعض حوائجها. ثم استغرق في العبادة، وألف الخلوة في الصومعة وشُغِلَ عن أمه وحاجاتها! وكانت الأم تنظر في حاله فتُعجب به، ولكنها كانت تتمنى لو بقي على ما كان عليه من برّ بها، وسؤال عن حاجاتها. وكلما مرّ يوم ازدادت ضيقاً بما هي عليه. . فجاءته ذات يوم في ضحوة من النهار فوجدت باب الصومعة مغلقاً. . فنادته:

ـ يا جريج. . . يا جريج. . .

ولكنها لم تجد جواباً. . . وكررت النداء. . ولم تجد صدى!

كان جريج مستغرقاً في صلاته. . وما راعه إلاّ صوت أمه يقطع عليه خلوته وعبادته. . ودارت الدنيا به!

«أأقطع صلاتي وأجيب أمي؟ أم أمضي في هذه الصلاة التي تعدل الدنيا وما فيها؟»

وتكرر نداء أمه وهو في حيرته. . . لا يدري ما

يفعل . . وانقطع صوت أمه . . ومضى في صلاته!

رجعت الأم عن صومعة جريج والأسى يملأ قلبها!

هل من الـدين أن يقـطع الـولد أمه ويفرغ لعبادته؟ أَوَلَيْس برّ الأم من العبادة؟ هل تلجأ إلى الأقارب والجيران يقضـون لهـا حاجاتها . . ولها ولد في عزّ الشباب!! لقد فعلت ذلك حتى استحيت من الناس . . . وآن لابنها أن يقوم بشؤونها .

وعادت الأم إلى الصومعة في اليوم التالي . . وكان ما كان بالأمس . . وكان مثلـه في اليوم الثالث . وبلغ الغضب بالأم مداه ، وطـار ما التمست له من أعذار . ونظرت إلى باب الصومعة المغلق . . . «هل يمكن أن يكون قد مات؟» لا! إني لأسمع صوت صلاته . . فكيف لا يسمع ندائي؟ أنا أمك يا جريج!! أنسيت وصايا الرب بالوالدين؟!»

وهمّت أن تدعو عليه بالفتنة في دينه ليذوق وبال أمره في هجر أمه والإعراض عنها!! ولكن حنان الأم ردّها عن ذلك! وتمثلت لها صورته ، وقد ارتد عن دينه . . . وأُلقي به في النار!

«ولكن كيف لا يجيب ندائي؟! إنه اليوم الثالث الذي

آتيه فيه. . أليس من حقي عليه أن يعلم أني ما جئته إلاّ لضرورة؟!!»

وما أسرع ما رفعت يديها بالدعاء، وكانت تسترق لحظات تغافل فيها عاطفة الأمومة. . وانطلق لسانها:

«اللهم لا تمته حتى ينظر في وجوه المومسات»!!

ومضت مُغْضَبة. . . وفي صدرها غليان لا ينقطع من العواطف المتصارعة. . تنظر في حقها على ابنها. . وتتمثل صورته في عبادته. . ثم كيف تتحقق دعوتها عليه. . !!

* * *

في جلسة من جلسات الهوى. . . ضمَّت أكابر المجرمين في البلدة، وقد دارت الخمر برؤوسهم. . والمومسات من حولهم. . وأخذوا في سمرهم الحرام!

قال قائل منهم: انظروا ما نحن فيه من اللذات. . وما أغرق جريج نفسه فيه من الخلوة الموحشة!! إنه لرجل مخبول!! كيف يعرض عن هذه الوجوه الحسان. . وبنتِ الدِنان. . ويختار صومعة مظلمة. . في بقعة مهجورة؟!

قال آخر: إن أمر جريج ليقتلني!! إن ذكره على كل

لسان في البلدة: جريج العابد... جريج الزاهد..
جريج الصالح!! وكأنه ليس في بلدنا إلا جريج!!

قال ثالث: وأدهى من ذلك أنّه لم يكفّ عنا شرّه..
لقد ظننا أنه في اعتزاله لنا ينفرد عن الناس.. وينقطع ما
كان منه من دعوة إلى المعروف ونهي عن المنكر! (يقول
ذلك متضاحكاً.. ويضحك من حوله)!! ولكن الناس لم
يتركوه! ها هم الناس يقبلون عليه.. يرجون بركة دعائه..
ويتوبون على يديه!!

وانبرت إحدى المومسات.. وكانت ذات حسن
يُتَمثّل به.. ويتنافس أهل الفساد على وصالها..

ـ دعوا لي جريجاً.. لأفتننّه عن دينه! ولآتينكم به إلى هنا!
ولأسقينّه الخمر بيدي! وأراقصه أمامكم!! أنا كفيلة
بالقضاء على أسطورة جريج!!

قال أحد الجالسين وقد أخذته الغيرة على تلك
البغي:

ـ «إن أمر جريج أهون من ذلك! أرسلي إليه واحدة من
فتياتك لتقوم بالمهمة!!»

فردّت عليه وقد لمحت ما ثار في نفسه من الغيرة
وأرادت أنْ تزيدها..

ـ بل أنا صاحبة جريج . . ولن ينزله من صومعته غيري ! !

* * *

كانت لجريج أيّام يفتح فيها باب صومعته بضع ساعات . . يستقبل فيها الزائرين، يدعو لهذا، ويرشد ذاك . . وكانت بعض النساء يأتين مع أزواجهن أو بعض المحارم . . ومن لم يكن معها رجل تقف لدى الباب . . . وتفضي إليه بحاجتها من غير أن تدخل الصومعة . . إن لم يكن معه غيره . .

وجاءت تلك المومس الحسناء متلفعة في ثيابها . . وقد أظهرت التستر والتعفف . . وكلّمت جريجاً وهي تظهر أنها ندمت على ما فات من أيام حياتها ـ وهي تمارس الرذيلة . . وقد جاءت تائبة طالبة منه الدعاء وكلمات الهداية!

ونظر جريج في أمرها . . . «أيمكن أن تتوب هذه؟ إنها رأس الفساد في البلدة! ! وبيتها وكر الرذيلة الأكبر. . . وكم جرّت إلى البغاء من فتيات . . تغريهن بكل وسيلة حتى يقعن في المصيدة، ثم يصبحن من توابعها، تصطاد بهن الرجال، ويزداد بهن سلطانها!

أيمكن أن تتوب هذه البغي؟! لئن تابت لتصلحنّ

البلدة كلها.. ولعل في هدايتها هداية لكل من أفسدتهم»!!

وطافت في ذهن جريج أُمنيَّة.. أن يرى بلدته وقد خلت من المفسدين.. وصار أهلها صالحين مصلحين... فرفع يديه بالدعاء لها أن يشرح الله صدرها، ويثبتها على الإيمان...

وتكررت زياراتها لجريج... وفي كل مرة يظهر منها التبتل والخشوع والندم والتوبة.. ولم يكن جريج يعلم ما يدور على ألسنة أهل البلدة من القيل والقال!! ولكنه لاحظ أن إقبال الناس على صومعته قد خفّ... منذ أن أعلمته هذه البغي بتوبتها... ومن كان يأتيه منهم ففي عينيه أشياء لا يدري ما هي...!! أتراهم استغنوا عن دعواته وإرشاداته؟!

* * *

لقد راب الناس أمر جريج منذ أن أخذت هذه البغي تتردد على باب صومعته.. إنهم يعلمون من أمرها مالا يعلم... فهي لم تتب، بل ازداد فسادها... ولم تكتف بذلك... بل أطلقت على نفسها لقب: صاحبة جريج... بهذا يناديها أصحابها... وتوابعها من البغايا... كيداً لجريج... وتشويهاً لسمعته!

وفـزع جريج ذات ليلة من استغـراقـه في دعـائـه وصلاته. . . إنه يسمع نقراً خفيفاً على الباب. . . وليس من عادتـه أن يفتـح الباب في مثل هذا الوقت. . . وإنه يسمـع مع النقـر على الباب صوت امرأة تناديه! وثار فيه فضول دفعه نحو الباب. . . فتحه ولكنه ما لبث أن ردّه من جديد وأحكم سدّه. . . !

ـ «ماذا تريد هذه المرأة في هذه الساعة؟!»

وهَتَفَتْ من وراء الباب:

ـ جريج. . . افتح الباب!

ـ ماذا تريدين!

ـ أريدك أنت!!

ـ ماذا تريدين مني؟ إنك تعلمين أنني لا أستقبل أحداً في مثل هذه الساعة!

ـ بل إنني كنت أنتظر هذه الساعة من زمن طويل!!

ـ اتقي الله وارجعي من حيث أتيت!

ـ لن أرجع حتى تنيلني ما أريد!

ـ ألم تتوبي إلى الله من خطاياك؟!

ـ تبت عن غيرك. . . وفرّغت نفسي لك وحدك!!

ودارت الـدنيا بجـريج. . . أي بلاء هذا الذي وقع فيه. . . ماذا يقول الناس لو رأوا البغي على بابه في هذه الساعة؟!

ومضى حين من الـــوقت وهي تحـاوره. . وتتحـايل عليه. . ولكنه استعصم بإيمانه! وجاءه صوتها من خلف الباب كالصاعقة:

ـ لقد انتهيت يا جريج. . انتهت أسطورة جريج العابد! انزل من صومعتك واسمع ما يتحدث به الناس عنك. . . إنهم جميعاً يعرفونني بصاحبة جريج!! فما لك لا تحقق ذلك فعلاً؟!

وتبين لجـريج سرّ انقـطاع النـاس عنه. . وحار في أمره. . «ماذا جنيت يا رب حتى أقع في هذه المصيبة؟!

لقـد انقـطعت عن الناس طلباً لرضاك، والنجاة من الفتن التي يقع فيها الشباب. . . فما للفتن تلاحقني في صومعتي؟!» ومضى جريج في دعاء وصلاة. .

* * *

وكان في البلدة راعٍ كبير السن. . . ليس له فيها أهل ولا عشيرة، أشفق عليه جُريج وأذن له أن يأوي إلى الطبقة الأرضية من الصـــومعـة. . . وكـان الـراعي يقـوم بشـأن جريج. . . يسقيه من اللبن. . . ويقضي له بعض حاجاته. . .

ولما رأت البغي إعراض جريج عنها. . . لمعت في

ذهنها فكرة خبيثة! وقد سمعت سعال الراعي في الطبقه السفلى... فما راعه إلاّ البغي الحسناء بين يديه... تقدم له نفسها من غير مراودة... وأذهله الموقف... وغلبه الشيطان... ومضت المومس وهي ترجو أن تكون قد علقت من الراعي في تلك الليلة جنيناً!!

* * *

وانقطعت البغي حيناً عن ممارسة البغاء... وأخذت علامات الحمل تبدو عليها.. ويسألها الناس.. فتقول: ألم أقل لكم إني صاحبة جريج... وهذا ابنه في بطني!!

وولدت البغي غلاماً... فجاءت به ومعها جمع من توابعها... ورهط من أصحابها... وكثير من أهل القرية! ووقفوا عند صومعة جريج ونادته: «يا جريج... ألا تخرج من صومعتك لترى ابنك؟! ماذا تريد أن تسميه..؟ انظر إليه... إنه يشبهك!!» وأخذت تعيد النداء وترفع به صوتها.. وهي تريد بذلك أن تشفي صدرها من هذا العابد الذي ترفّع عن جمالها، ولم يقع في شباكها.

وكان جريج في صومعته قد ثقلت عليه الأزمة... وانقطع في عبادة طويلة مستغرقة.. فما يكاد يسمع شيئاً مما حوله!

ولمـا لـم يجب جريج . . . قال بعض القـوم : «ماذا ترون في هذا الذي خدعنا وظننا به الخير أعواماً؟!»

قال قائل منهم : أرى أن نهدم صومعته ونجعلها قبراً له!!

وارتفعت الأصوات، واختلط بعضها ببعض، وامتدت المساحي والفؤوس تهدم تلك الصومعة الطينية!!

وكسـر بعضهم الباب . . . وأخرجوا جريجاً . . ونظر فإذا أهـل البلدة مجتمعون . . . والمومسات قد احتشدن على باب الصومعة وكأنهن يعرضن أنفسهن عليه!! . . . ونظر في وجوههن . . . فاستعاذ بالله واستغفر . . . وانهالت عليه الأيدي بالضرب . . . وأخذت الصومعة تتهاوى!!

وأقبلت أم جريج تشقُّ الصفوف وتدافع عن ابنها . . . ورأت المنظر فهالها أن ترى تحقق دعوتها على جريج!! وانتحت به جانبـاً وقـالت: «يا جريج، اصدقني القول، أأنت أبو الغلام؟»!

وعجب جريج من أمه وقال: «حتى أنت يا أماه!! أُشهد الله أني بريء مما يفترون!!»

قالت الأم: إني على يقين من براءتك . . وإنّها إرادة

الله، ولكن كيف نرد القوم عنك، ويتحققون من براءتك؟ إنهم يهدمون صومعتك. . . ويريدون بك شراً!!

وارتفع صوت جريج: يا قوم، لئن قلت لكم إني لست والد هذا الغلام فلست بمصدَّق عندكم، فقد أحكمت هذه البغي الخطّة، حتى صار الكذب لديكم حقيقة. . . ولكن أمهلوني حتى أصلي ركعتين. . ثم انظروا في أمركم!»

وتوجه جريج في صلاته إلى ربه. . وتضرَّع وأخبت. . . وتذلل ورجا. . أن تظهر الحقيقة. . . وينكشف كيد البغي، فألهمه الله أن يخاطب الغلام الرضيع. . فأقبل عليه. . . وطعن في بطنه طعناً خفيفاً. . . وقال: يا غلام، من أبوك؟!! ونظر القوم في جريج وقالوا: أجننت؟ كيف تكلم من كان في المهد صبياً؟!

وكرر جريج السؤال: وكانت المفاجأة. . .

وجاء الجواب من الغلام يسمعه من حوله:

- أبي الراعي الذي يأوي إلى صومعتك!!

وخرّ جريج لله ساجداً شاكراً. . وبُهتت البغي و من معها من المومسات، ورؤوس الفساد. . وأرادت أن تولي

الأدبار، وأحاط بها أهل البلدة يضربونها هي ومن معها. . .

وأقبلوا على جريج. . يقبلون يديه. :. يطلبون المسامحة. . . ويرجونه الدعاء. . . وقال قائل منهم:

- إنّ من حق جريج علينا أن نبني له صومعة من ذهب وفضة. . وما أظن ذلك يكفر عن خطيئتنا معه، وسوء ظننا به! ونظر جريج إليهم وقال:

- يكفّر عن خطيئتكم أن تتوبوا إلى الله. . وتُخلصوا له العبادة، وتطهروا بلدتكم من المفسدين. . . أما الصومعة فأعيدوها من الطين كما كانت!

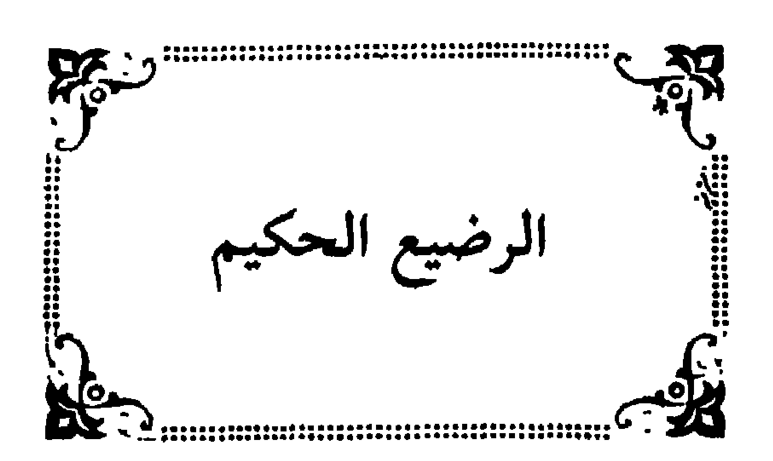
* * *

ونظر جريج إلى أمه. . فوجدها قد انتحت مكاناً قصّياً وهي تبكي! واقترب منها وقال: لا تبكي يا أماه، فإنما يبتلي الله من عباده المؤمنين. . والحمد لله الذي دحض الإفك وكشف الفِرْية. . وردّ كيد البغايا ولعل الله يُطهّر بلدنا منهن بعد هذه المحنة. . .

قالت الأم و هي تحتضن ولدها: سامحني يا ولدي! فأنا سبب ما نالك من بلاء!! إنها دعوتي عليك يوم جئتك فلم تجبني ثلاثة أيام!!

وأجهش جريج في البكاء. . . وأقبل على أمه يلثم يديهـا ويقـول: بل سامحيني أنت يا أماه. . واغفريَ لي تقصيري في خدمتك. . وأحمد الله أنك لم تدعي عليّ بالفتنة في ديني إذاً لكنت من الهالكين!!»





الرضيع الحكيم

المتكلم في المهد

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «. . . وبينا صبي يرضع من أمه، فمرّ رجلٌ راكب على دابة فارهة، وشارة حسنة، فقالت أمه: اللهم اجعل ابني مثل هذا، فترك الثدي وأقبل إليه، فنظر إليه فقال: اللهم لا تجعلني مثله، ثم أقبل على ثديه، فجعل يرتضع. قال: فكأني أنظر إلى رسول الله ﷺ يحكي ارتضاعه بأصبعه السبابة في فمه، فجعل يمصّها.

قال: ومرّوا بجارية وهم يضربونها، ويقولون: زنيتِ، سرقتِ، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها فقال: اللهم اجعلني مثلها.

فهناك تراجعا الحديث، فقالت: حلقىٰ، مرّ رجل حسن الهيئة فقلت: اللهم اجعل ابني مثله، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، ومرّوا بهذه الأَمَة وهم يضربونها ويقولون: زنيتِ، سرقتِ فقلت: اللهم اجعلني مثلها، قال: إن ذاك الرجل كان جباراً، فقلت: اللهم لا تجعلني مثله، وإن

هذه يقولون لها: زنيتِ، ولم تزنِ، وسرقت ولم تسرق، فقلت: اللهم اجعلني مثلها».

مختصر صحيح مسلم،

باب بر الوالدين

ص ٤٦٨-٩



جلست أم حكيم قريباً من نافذة البيت، وقد أرخت عليها ستراً رقيقاً يكشف ما وراءه من الطريق، ويحجب ما في البيت عن عيون الناظرين. نظرت في الغادين والرائحين، وما هم فيه من حركة ونشاط، ومن بيع وشراء. . . حياة تموج بها السوق التي يطل عليها بيتها. ويلفت النظر في هذا المشهد طفل جالس القرفصاء. . متكوّم على نفسه، واضع ذقنه بين يديه، كأنما يفكر في هذه الدنيا، وما فيها من عجائب! أو هكذا يخيّل للناظر إليه.

ويمرّ شيخ يتوكأ على عصاه وقد غفلت عنه الدنيا بعد إقبال، فهو يحاول أن يجد لنفسه موطىء قدم في هذا الزحام.

نظرت أم حكيم في ذلك كله. . . وأطلت عليها ذكرى زوجها الذي عاشت معه عمراً قصيراً. . . كان حلواً قصيراً كالحلم الذي يطوف بعين الوسنان! يلذّه حيناً من الليل ثم يتركه بعد ذلك لحسرة التذكر!! ولكن ماذا

تستطيع أن تفعل؟ أليست هي إرادة الله . . . ؟ ولكل أجل كتاب .

وغامت عيناها بالدموع ونسيت نفسها . . وغرقت في بكـاء صامت . وأفـاقت مما هي فيه على صوت رضيعها «حكيم»! ولم تدر إن طال به الوقت أو قصر، ولكن صوته ودموع عينيه ينبئان أنها غفلت عنه وقتاً طويلاً . لا بد أنه قد جاع ، وأقبلت عليه تضمه إلى صدرها ونظرت في وجهه المتغضن بالبكاء . . فمسحت دموع عينيه . . وخُيِّل إليها أنه يبكي مشاركاً لها ما كانت فيه من الخواطر التي انثالت عليها وهي ترقب الناس من النافذة . . وتطوف بها ذكرى الزوج الراحل! وهدأ الطفل وقد أحس بحرارة الدفـء بين ذراعي أمه ، وأقبلت عليه ترضعه . . . وأقبل حكيم على ثديهـا يمصـه من شدّة الجـوع! وبقيت أم حكيم معلّقة العينين بالنافذة!

ومرّ شيخ التجار راكباً فرسه . . ومعه ثلاثة من ولده في موكب بهيج مهيب . . . يسـر العين! نظرت إلى شارتـه وحسن منظره ، وإلى أولاده من حوله ، وقد أقبل عليه أهل السوق من التجار يحيونه ، ويستوقفه بعضهم ، يقترب منه ويُسرّ إليه ببعض الكلمات ، وهو يهزّ رأسه ! !

ونظرت أم حكيم إلى رضيعها المقبل على رضاعته بنهم. . . ودارت في رأسها أمنيات. . . وتخيَّلت ابنها وقد صار شيخاً لتجار البلد!! ولم تملك لسانها فانطلق يقول: اللهم اجعل ابني مثل هذا!!

وتوقف الرضيع عما كان فيه. . وأزاح الثدي عن فمه بكفه الصغيرة، وبكى. . . وأقبلت أمه عليه تلقمه الثدي مرة أخرى. . . ولكنه لوى عنقه ينظر من النافذة! وقد توقف عن البكـــاء. . . واهتـزت أم حكيم وهي تسمـع من فم الرضيع: «اللهم لا تجعلني مثل هذا»!! ونظرت الأم في ابنها ومِنْ حولها. . ولم تصدّق ما سمعت! وأقبل الطفل على صدر أمه يرضع!

ومضى حين من الوقت لَهَتْ فيه أم حكيم عن النظر في النافذة، ولكن شدّ سمعها وبصرها أصوات عالية. . فإذا مجموعة من الرجال متحلّقون حول امرأة، وقد أمسك بهـا اثنـان يضـربـانهـا. . . ويصيحـان بها، وهي تبكي وتصيح! فقالت أم حكيم: «الله أعلم بحال هذه المرأة»!! ودارت في ذهنها حولها الظنون! واستعاذت بالله من حالها! وهـل يفعـل النـاس بهـا هذا لو لـم ترتكب ذنباً عظيماً؟ واسترجعت صورة شيخ التّجار. . . فقالت:

ـ اللهم لا تجعل ابني مثل هذه!!

وأخذت الأم الدهشة إذ توقف حكيم عن الرضاعة . . ونظر بعينيه الصغيرتين نحو النافذة . . وقال: اللهم اجعلني مثل هذه، وتأكدت الأم أن ابنها قد نطق مرّتين!! فها هي تسمع منه مرة أخرى! فلم يكن ما سمعته من قبل وهماً أو تخيّلاً!! وأقبلت عليه وهي في حال عجيبة . . وقالت كأنها تكلم فتى ينطق:

«ما شأنك يا حكيم! مرّ شيخ التجار وهو الغني ذو الجاه والمكانة فدعوت الله أن تكون مثله . . رجاء أن تنال الخير في الدنيا . . فلم يعجبك ذلك!! ومرّ القوم بهذه المرأة المريبة يضربونها فدعوت الله أن تكون مثلها!! فما شأنك يا بني؟!

ألا تريد أن تكون شيئاً عظيماً في هذه الحياة لتخفف عني ما أنا فيه . . وتعوضني صبر السنين؟!»

ولم تكن أم حكيم ترجوَ أن تسمع جواباً . . . وظنت أن لسان الطفل قد انعقد مرة أخرى! ولكن ما قالته كان ردَّ فعل لما سمعته منه أو خُيِّل إليها أنها سمعته!

وقُطعت أوهام أم حكيم وهي ترى شفتي الرضيع تتحركان، وأذنها تسمع:

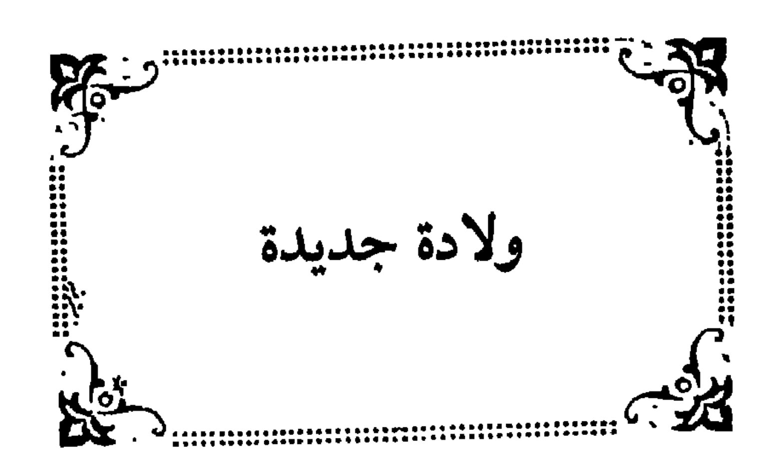
ـ يا أماه! أما شيخ التجار فرجل جبار مفسد في الارض! يأخذ الرشوة، ولا يعطي الناس حقوقهم! أتريدينني كذلك! أكسب الدنيا وأخسر الآخرة؟!»

كانت المرأة تستمع إلى صغيرها في دهشة وعجب.. من أين لهذا الطفل هذا الكلام؟ واستأنف حكيم قوله:

«وأما المرأة التي مرّ بها القوم يضربونها... فهي أَمَة ظلمها أصحابها... يقولون لها: زنيتِ ولم تزنِ! وسرقت، وهي بريئة!! تحتسب أمرها لدى ربها... وهي عند الله خير من شيخ التجار!!

احتضنت أم حكيم ابنها.. وشدّته إلى صدرها... وصنعت به ما تصنع الأم في لحظة فيض من حنان... وقالت تخاطبه: لقد صدق أبوك حين سمّاك حكيماً، وسبحان من أنطقك بالحق رضيعاً.





ولادة جديدة

حديث الغار

«عن النعمان بن بشير أنه سمع رسول الله ﷺ يذكر الرقيم فقال:

إن ثلاثة كانوا في كهف فوقع الجبل على باب الكهف، فأوصد عليهم، قال قائل منهم: تذاكروا أيكم عمل حسنة لَعَلّ الله عز وجلّ برحمته يرحمنا.

فقال رجل منهم: قد عملت حسنة مرة، كان لي أجراء يعملون فجاء عمال لي، فاستأجرت كل رجل منهم بأجر معلوم، فجاءني رجل ذات يوم وسط النهار، فاستأجرته بشطر أصحابه، فعمل في بقية نهاره كما عمل كل رجل منهم في نهاره كله، فرأيت علي في الذمام ألاّ أنقصه مما استأجرت به أصحابه لما جهد في عمله، فقال رجل منهم: أتعطي هذا ما أعطيتني ولم يعمل إلا نصف نهار؟ فقلت: يا عبد الله، لم أبخسك شيئاً من شرطك، وإنما هو مالي أحكم فيه ما شئت.

قال: فغضب وذهب وترك أجره. قال: فوضعت حقه في جنب البيت ما شاء الله، ثم مرت بي بعد ذلك بقر، فاشتريت به فصيلة من البقر، فبلغت ما شاء الله، فمرّ بي

بعد حين شيخاً ضعيفاً لا أعرفه فقال: إن لي عندك حقاً، فذكرنيه حتى عرفته، فقلت: إياك أبغي، هذا حقك، فعرضتها عليه جميعها، فقال: يا عبد الله، لا تسخر بي، إن لم تصَّدَّق علي فأعطني حقي. قال: والله لا أسخر بك، إنها لحقُّك، مالي منها شيء، فدفعتها إليه جميعاً.

اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا. قال: فانصدع الجبل حتى رأوا منه وأبصروا.

قال الآخر: قد عملت حسنة مرة، كان لي فضل، فأصابت الناس شدة، فجاءتني امرأة تطلب مني معروفاً، قال: فقلت: والله ما هو دون نفسك، فأبت علي فذهبت ثم رجعت، فذكرتني بالله فأبيت عليها، وقلت: لا والله ما هو دون نفسك، فأبت علي وذهبت فذكرت لزوجها فقال لها: أعطيه نفسك، وأغني عيالك. فرجعت إلي فناشدتني بالله، فأبيت عليها وقلت: والله ما هو دون نفسك، فلما رأت ذلك أسلمت إليّ نفسها، فلما تكشفتها وهممت بها ارتعدت من تحتي، فقلت لها: ما شأنك؟ قالت: أخاف الله رب العالمين. قلت لها: خفتيه في الشدة ولم أخفه في الرخاء؟ فتركتها وأعطيتها ما يحق علي مما تكشفتها. اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا، فانصدع حتى عرفوا، وتبيّن لهم.

قال الآخر: عملت حسنة مرة، كان لي أبوان شيخان كبيران، كانت لي غنم، فكنت أطعم أبوي وأسقيهما، ثم رجعت إلى غنمي، قال: فأصابني يوماً غيث حبسني فلم أبرح حتى أمسيت فأتيت أهلي، وأخذت محلبي فحلبت وغنمي قائمة، فمضيت إلى أبويّ فوجدتهما قد ناما فشق عليّ أن أوقظهما، وشق عليّ أن أترك غنمي، فما برحت جالساً ومحلبي على يدي حتى أيقظهما الصبح، فسقيتهما.

اللهم إن كنت فعلت ذلك لوجهك فافرج عنا.

قال النعمان: فكأني أسمع من رسول الله ﷺ قال الجبل: طاق! ففرج الله عنهم، فخرجوا».

الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ٢٠/١٥٢ـ١٥٤.

وقد روي الحديث عن ابن عمر في فتح الباري ٤/٤٤٩، وصحيح مسلم ٣/٢٠٩٩ـ٢١٠٠ مع شيء من الاختلاف، وقد آثرت هذه الرواية لما فيها من تفصيل حالة المرأة المحتاجة.

قال عبد الرحمن لصاحبيه: إني لأرجو أن ننال في سفرنا هذا ربحاً وفيراً. فما حملناه من البضاعة من أجود الأصناف.

قال عبد الستار: ولا تنس يا عبد الرحمن أن الناس بخير والمال في أيديهم كثير، ولن تبور تجارة.

وقطع عبد الوهاب ما هم فيه من الكلام وقال: يبدو أن رغبتكما في البيع والربح قد شغلتكما عمّا حولكما! ألا تريان هذه الغيوم التي تملأ آفاق السماء؟ وهذه الرياح التي بدأت تهب بشارة بنزول المطر؟ والرأي عندي أن نبحث عن مأوى قريب نريح فيه أنفسنا ودوابنا. وننتظر أن تنجاب هذه السحب!

ومضى الركب في طريقه وعيون الرجال تبحث هنا وهناك في سفوح الجبال المحيطة بالشِّعب الذي يسلكون.

وقال عبد الستار: إن في هذا الجبل كهفاً واسعاً، وقد

نزلت به من قبل مرات عديدة. . . فالرأي عندي أن نأوي إليه نحن ودوابنا.

ونَهَد الركب نحو الغار والريح تهب، يغذّون السير حرصاً على أنفسهم وعلى ما معهم من البضاعة. ويبدو أنها كانت عاصفة أدركتهم طلائعها قبل أن يصلوا إلى الغار، فللريح صفير يتخلل أوراق الشجر وشقوق الصخور، وحبات المطر تتساقط وتزداد شدة. . . فيصيب وجوههم منها ما يجعلهم يتلثمون!

قال عبد الستار وهم يربطون دوابهم في ناحية من الكهف الواسع، وقد تخلّصوا من لطمات العاصفة. . . عليكما أن تحمدا الله أن هبّت العاصفة ونحن قريبون من هذا الكهف!

واشتدت الرياح. . . وانهمرت الأمطار. . . واختفت الشمس، وخيّم الظلام، وأخذ البرق يلمع بين حين وآخر، يشق الغيوم، فيبصرون شيئاً من السفوح المقابلة لكهفهم، ثم يرتدّون عن باب الغار حين يسمعون قصف الرعد. . . فتكاد قلوبهم تنخلع! وتلفع كل منهم ببرده، وأوى إلى ركن من الغار ولسانه لا يفتر عن ذكر الله، والتسبيح بحمده، ودعائه أن يكتب لهم النجاة من هذه العاصفة!!

وسـالت المياه، وتـدفقت عبـر السفَوح منحدرة إلى الشعـاب، وأخـذت تجـرف في طريقها ما يعترضها من أغصان الشجر والحجارة والتراب! واشتد الظلام، وطاف عليهم النعاس! كان سفرهم طويلاً مرهقاً، وزادتهم رهقاً هذه العاصفة التي قطعت عليهم الطريق.

وفجـأة هب النيام. . . وقفـز كل منهم من مكـانه، وانطلقت من أفواههم صرخة دهشة ورعب! فقد أيقظهم من نومهم صوت ارتطام شديد اهتزت له أنحاء الكهف! ومدّ عبد الستار يده إلى زناد كان في جيبه، وأخذ يقدح به وهو يزحف على الأرض متجهاً نحو باب الغار، وكم كانت دهشتـه أنه لـم يجد للغار باباً!! لقد وقعت تلك الصخرة التي أفزعتهم من نومهم على الباب فسدّته!!

واقتــرب الثـلاثــة يتحسســون أمـاكنهم في هذه الظلمة. . . وقد ارتفع صوت أنفاسهم، واضطربت دقات قلوبهم. . وخيّل إليهم أن الموت قد كتب عليهم في هذا الغار، الذي ظنوه قبل قليل منجاة لهم. وتلاشت آمالهم في التجارة والربح، وطارت الأماني التي كانت ترفرف في عقولهم عندما خرجوا ببضاعتهم!

قال عبد الستار: ماذا عسانا نفعل ونحن في هذا الليل الذي تراكبت ظلماته؟ ليس لنا إلّا أن ننتظر الصباح فنرى

ما حلّ بنا . . . وما أظنه بعيداً.

قال عبد الوهاب: انظروا لقد دهمتنا العاصفة فأذهلتنا عن جمع شيء من الحطب نستدفىء به، ونستضيء بنوره ونستأنس! أي محنة هذه التي وقعنا فيها؟!

قال عبد الرحمن: لن ينفعنا ندم أو أسف! فليخل كلّ منا بنفسه، ولْنناجِ الله مفرج الكروب . . . وإذا طلع النهار تدبرنا أمرنا.

وانتحى كل من الثلاثة قريباً من صاحبه . . وارتفعت أكفهم بالضراعة والدعاء واستغرقوا فيما هم فيه من المناجاة . . . وخفتت أصوات العاصفة، وهدأت الريح . . . وليس إلّا أصوات المياه المتدافعة على سفوح الجبال . . . وأصوات أطيار خرجت من أوكارها . . . تزقزق . . وتسبح بحمد ربها!

ولاحت خيوط من أشعة الشمس تسللت من شقوق الغار تنبىء من فيه أن النهار قد طلع . . وخفّت حدّة الظلمة، وأخذت عيونهم ترى شيئاً مما حولها . . فقد مَرنَتْ على الظلمة.

قال عبد الرحمن: لقد طلع النهار، وأشرقت الشمس، فهيا إلى هذه الصخرة النكدة نعالجها . . لعلنا

نخرج من هذا السجن!

وأقبل الثلاثة على الباب يحاولون زحزحة الصخرة. . مرة بعد أخرى. . . حتى بلغ بهم اليأس حده. . فكأنما هي جزء من الغار لا صخرة طارئة! أتراهم أخطأوا المكان. . . وأخذوا يتحسسون جوانب الغار بحثاً عن الباب. . ولكنهم كانوا على يقين من مكانه. . . ! وأصابهم الجَهد فجلسوا يتشاورون، ويجددون ما فتر من عزيمتهم.

قال عبد الرحمن: يبدو أنه لا طاقة لنا بما نزل بنا من البلاء. وها أنتما تريان أننا حاولنا زحزحة الصخرة من مكانها ولكن بغير جدوى! ولن يزحزحها إلاّ الذي قدّر سقوطها على الباب!

قال عبد الستار: لقد دعونا الله عز وجل طول الليل فماذا عسانا نفعل؟!

قال عبد الوهاب: لقد سمعت من بعض العلماء أن ممّا يتوسل به العبد إلى ربه أن يدعوه بعمل صالح قدمه خالصاً لوجهه.

قال عبد الرحمن: ما أكثر ما نعمل: ولكننا لا ندري ما قبل منها!

قال عبد الستار: فليجتهد كل واحد منا في تذكر أرجى عمل قدمه، وليدع الله عز وجل به، عسى أن يفرّج عنا ما نحن فيه!

قام عبد الرحمن وانتحى جانباً... ورفع يديه بالدعاء... وتوسل إلى الله عز وجل أن يلهمه تذكُّر أرجى عمل قدّمه.. وصمت حيناً كأنه يسترجع ما مضى من حياته وعمله ثم قال بصوت يسمعه صاحباه:

اللهم إنك تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران، ولم يكن لهما من معيل غيري، وكنت براً بهما، حريصاً على رضاهما، لا أقدّم عليهما زوجة ولا ولداً. وأنت تعلم أنه كان من عادتي إذا رجعت بالغنم من المرعى ألّا أسقي من اللبن أحداً قبلهما، طلباً لرضاهما. وتعلم يا رب أنه قد نأى بي طلب المرعى ذات يوم، وأصابني مطر ألجأني وغنمي إلى كهف أوينا إليه حتى انجاب المطر، ولما رجعت إلى البيت، وحلبت الغبوق... وجدتهما نائمين. وتعلم يا رب أني قد مكثت قائماً والقدح علي يدي، لا أريد أن أوقظهما فينزعجا، ولا أريد أن أسقي أحداً قبلهما، ولبثت وأولادي يصيحون من الجوع... حتى استيقظا مع الفجر... فوجداني على حالي.. فدعوا لي وشربا... ثم انفتلت إلى أولادي فسقيتهم.

ـ اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك براً بهما، ابتغاء مرضاتك ففرّج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة.

وخَرَّ عبد الرحمن ساجداً مستغرقاً في الدعاء والبكاء... واختلطت في نفسه ذكرياته مع والديه وبره بهما.. وصورة أولاده وزوجته الذين ينتظرون رجوعه... ولاحت له الصخرة التي تكاد تغلق باب الأمل بالعودة إليهم!

وتلفت الصديقان نحو باب الغار وصاحبهما في سجوده وضراعته... وهتف عبد الستار: بُشراك يا عبد الرحمن.. ارفع رأسك فقد فرج باب الغار.. وزحزحت الصخرة! ولست أدري هل أهنئك على قبول عملك.. أم على هذا الأمل الذي فتح لنا باب النجاة!

وأقبل الثلاثة على باب الكهف ولاح لهم من خلال الشق الذي فرّج جانب من السماء وجنبات الجبال.. ولهجت ألسنتهم بحمد الله وشكره.. وحاولوا الخروج... فلم يستطيعوا، لقد كان الشق الذي فرج صغيراً.. وخبا الأمل الذي أشرق في نفوسهم شيئاً قليلاً!

قال عبد الرحمن: إن استجابة الله عز وجل لدعائي تعطينا طرف الخيط الذي علينا أن نتمسك به. لقد فرجت

الصخـرة شيئـاً قليلاً . . فليدع أحدكما ربه بعمل صالح قدمه كما فعلت، فلعل الباب كلّه يفتح لنا!

وانتحى عبـــد الستـار جانبـاً . . ووضـع وجهـه بين كفيّه . . . وارتفع صوته بالبكاء، وطال به ذلك حتى خفّ إليه صاحبـاه . . ورجـواه أن يدعو الله ويكف عن بكائه! ورفع عبد الستار كفيّه عن وجهه . . . فتبينا خيوط الدمع فيه . . وقال: إني لأعلـم عملاً قمت به . . وإني منه لشديد الخجل! أنظر في بدايته فيغلبني الأسى على قسوة قلبي وقلة حيائي . . . وأنظر في نهـايتـه فيبرد قلبي، وينشرح صدري . . وأرجو من الله المغفرة.

قال عبد الوهاب: هيا عبد الستار، إن الوقت يمر، وقد بدأت المحنة تنفرج . . . فادع الله لعله يكشف عنا الغمّة.

اعتدل عبد الستار في جلسته ورفع يديه وقال بصوت يخنقه البكاء، ويقطع كلماته النشيج:

ـ اللهم إنـــك تعلم أني كنت في شبـــابي ذا جمـال وغنى، وكنت لاهياً عن طاعتك،اغرتني الدنيا بما أذاقتني من ألوان النعيم، وكنت لا أبالي بقرابة ولا أقيم وزناً لرحم! وإنك تعلم أنه كانت لي ابنة عم، كانت أحب الناس إليّ، وكنت

راغبــاً في زواجهــا، ولم يكن عمي راضياً من سيرتي، فزوجهـا رجـلاً آخـر، ومـرت الأيام وأصابت الناس شدة اجتاحت كثيراً من مالهم. . وكان لي فضل مال! فجاءت ابنة عمي طامعة فيما بيني وبينها من قرابة تطلب شيئاً من المال. . . فقلت: ها قد حانت ساعة الوصال. . لأقضي ما في نفسي من شهوة وحب! فطلبتها لذلك فأبت عليّ. . ثم مضت وعادت! وذكّرتني بالله. . فأبيت إلاّ ما طلبت!

وكان زوجها قد أصابه مرض أقعده عن العمل، وكان لها أطفال صغار، وذكرت لزوجها ما كان من طلبي منها! ونظر الزوج إلى أطفاله وما هم فيه. . . وإلى مرضه وقلة حيلتـه. . وكـأنمـا انسدّت أبواب الدنيا في وجهه ووجه زوجته! وعدم أهل الخير. . . فقال لها والأسى يقطر من كلماته:

ـ أعطيه نفسك! وأغني عيالك!!

ونظرت ابنة عمي في زوجها وصرخت: «ولكن كيف يكون ذلك؟!!»

والتجـأت إلى الله. . تدعـوه أن يفرّج عنها. . وهي التقية الصالحة! ولمّا لم تجد من ذلك بُدّاً. . جاءتني في ذلـة وانكســار. . والحـزن يملك عليها نفسها وجسدها!

وحاولت معي أن يكون ما أعطيها قرضاً حسناً! وأن أكفّ عن عرضها! فقلت: والله ما هو دون نفسك!!

ولم تشفع لها ضراعتها.. ولم يلن قلبي لانكسارها... كنت في تلك اللحظة كالوحش الهائج... كالجائع القرِم إلى اللحم لم يذقه من سنين!!

فلمّا رأت ذلك قالت والدموع في عينيها: دونك ما تريد!

وأسلمت إليَّ نفسها! فلمّا هممت بها ارتجّ جسدها.. وأصابتها رعدة شديدة خشيت عليها منها! فقلت لها: ويلك، ما شأنك؟! قالت: إني أخاف الله رب العالمين!

وكأنما انكشفت عن عيني سحب الغواية لما رأيت من حالها وتقواها! فأبصرت شناعة ما هممت به في ابنة عمي المحصنة العفيفة... فقمت وأنا أقول: خفت الله في الشدة.. ولم أخفه في الرخاء؟! وأخذت أردد هذه الكلمة... وأنا معرض بوجهي عنها.. حياء منها.. وخوفاً من الله عز وجل. وعاهدت الله ألاّ أعصيه أبداً... وقلت لها: خذي ما أعطيتك من المال بحق ما تكشفتك... وانصرفي إلى زوجك وعيالك.. وإن نزلت

بك حاجة إلى المال فلك ذلك عندي!

اللهم إن كنت تعلم أني عففت عنها خوفاً منك.. وأعطيتها المال ابتغاء مرضاتك.. وطلباً لمغفرتك فافرج عنا ما نحن فيه...!

وأخفى وجهه بين كفيه من جديد.. وغاص في البكاء.. وكأنه لا يريد أن ينظر في وجه صاحبيه اللذين عرفا ما كان من شأنه مستوراً!! وقال بصوت خفيض: سألتكما بالله أن تكتما عني ما سمعتما، وأن تدعوا الله أن يغفر لي ما سلف من ذنوبي!!

وارتفعت الأكف بالضراعة والدعاء.. ولم يقطع ذلك الجو الروحاني الذي أنساهم ما هم فيه من المحنة إلاّ صوت الصخرة تتزحزح من مكانها!

وهبّ الثلاثة نحو الباب... وهتف عبد الرحمن: انظر يا عبد الستار. لقد استجاب الله دعاءك... إنها علامة المغفرة والقبول... لقد فرّجت الصخرة شيئاً قليلاً!

ووقف الثلاثة متشبثين بطرف الصخرة المنفرج.. يتأملون العالم الخارجي وكأنهم سجناء حبسوا عن النور سنين طويلة!!

وحاولوا الخروج . . يمدون أيديهم حيناً . . ويحاولون إخــراج رؤوسهم وفي ذلـك ما فيه من مخـاطـر الهُـوِيّ والانــزلاق! وإن خرجــوا هم فكـيف ستخـــرج دوابهم وبضـاعتهم! لم تنته المحنة بعد! ولا بد من ضربة دعاء ثالثة . . تزيح الصخرة كلها!!

قال عبد الرحمن: لقد تلقيت أنا وعبد الستار البشارة من الله عز وجل بالقبول والرضوان . . . وبقيت أنت يا عبد الوهاب . . فادع عسى أن يكون في دعائك الفرج الكامل! هيا وقم إلى الله عز وجل بالدعاء . . . لعل دعاءك يكون الضربة القاضية على صخرة الابتلاء!

وأحس عبد الوهاب بثقل ما طُلب منه . . لقد استجاب الله لصـاحبيه . . . فهل يكرمه بالاستجابة . . . وهل ينال من الشرف ما نالاه؟

وتوجه عبد الوهاب إلى ربه بالدعاء . . . وانثالت على خاطره صور من الماضي . . وارتفع صوته وهو يقول:

اللهم إنـك تعلم أني استأجرت عمالاً . . . جعلت لكلٍّ منهم أجراً معلوماً، وجاءني رجل في وسط النهار وقد مضى شطر العمـل، فاستأجرته بنصف أجرة أصحابه . . وكان رجلاً قوياً . . حتى ساوى أصحابه فيما عملوه من أول

النهار. وأنت تعلم يا رب أني نظرت فوجدت من حقه عليّ أن أجعل له من الأجر مثل أصحابه. . فقال رجل منهم: كيف تعطي هذا مثل ما تعطينا، ولم يعمل إلّا شطر النهار؟ فقلت له: يا عبد الله لم أنقصك شيئاً من حقك، والمال مالي، أحكم فيه ما أشاء!

وأنت تعلم يا رب أن ذلك الرجل غضب وترك أجره لديّ. . ومرّت الأيام ولم يعد لأخذه، فرأيت من حقه عليّ أن أثمرّه له، فاشتريت فصيلة من البقر، فبلغت ما شاء الله أن تبلغ، واشتريت له إبلاً وغنماً ورقيقاً، حتى كثر ذلك ومرّ بي بعد حين، وقد كبر فلم أعد أعرفه، فقال: يا عبد الوهاب، إن لي عندك حقاً. . فأدّه لي. . وذكرني بما كان من شأنه القديم!

فقلت له: انظر ما ترى في ذلك الوادي من الإبل والبقر والغنم والرقيق. . فذلك أجرك الذي لك عندي!!

وتعلم يا رب أنه قال لي: يا عبد الوهاب لا تسخر بي! ولم يصدّق ما قلت له. . بل ظن بي الظنون! فقلت له: ذلك كله حقك. . . قد ثمرّته لك لوجه الله. . فساقه كلّه ولم يدع منه شيئاً. اللهم إن كنت تعلم أني فعلت ذلك ابتغاء وجهك، وإبراء لذّمتي عندك. . وخوفاً من أن ألقاك

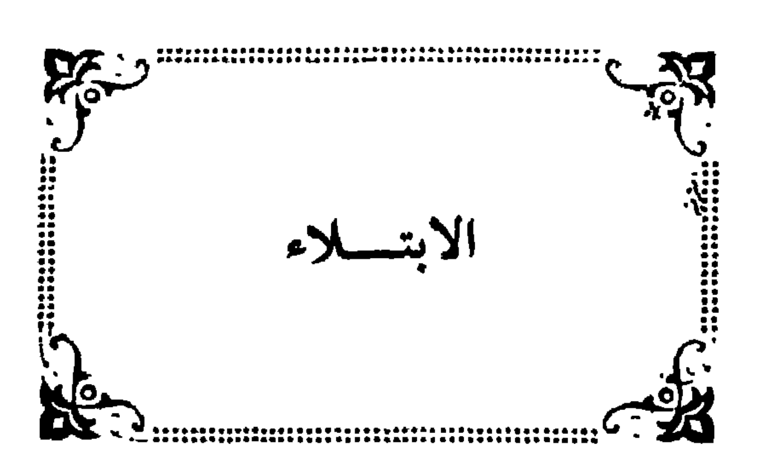
ظالماً لعبد من عبادك فافرج عنا ما نحن فيه حتى نخرج من هذا الغار!

ورفع صاحباه أيديهما يؤمنان على دعائه. . والدهشة بادية في وجهيهما مما سمعا. . . حتى ذهلا عمّا كانوا فيه من الضيق! والسؤال في أعينهما يقول: أيمكن أن يكون هذا حقاً؟ أفي الناس من يفعل هذا؟!

وما هو إلاّ أن سمعا صوتاً أفزعهما. . . ولكن النور الذي اندفع في الغار ردّهما إلى وعيهما. . فخرّ الثلاثة ساجدين شكراً لله رب العالمين.

قال عبد الرحمن لصاحبيه وقد أخذوا طريقهم نحو غايتهم: لقد جمعتنا المحبة في الله من قبل، وأرانا بعد محنة الغار نزداد في الله حباً. . ألا تريان أننا قد ازددنا من الله قربا. . وببعضنا معرفة؟! ألا تريان أننا على كبر سننا ولدنا من جديد؟!





الابتـــلاء

حديث الأبرص والأقرع والأعمى

روى أبو هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«إن ثلاثة في بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى، بدا لله عز وجل أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً، فأتىٰ الأبرص فقـال: أي شيء أحب إليك؟ قال: لون حسن، وجلد حسن، قد قذرني النـاس، قال: فمسحـه، فذهب عنه فأعطي لوناً حسناً، وجلداً حسناً، فقال: أي المال أحب إليك، قال: الإبـل.. فأعـطي ناقـة عُشراء... فقال: يبارك لك فيه.

وأتى الأقرع فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: شعر حسـن، ويذهـب هذا عني، قد قذرني النـاس. قال: فمسحه فذهب، وأعطي شعراً حسناً، قال: فأي المال أحب إليك: قال البقر: فأعطاه بقرة حاملاً، وقال: يبارك الله فيها. وأتى الأعمى فقال: أي شيء أحب إليك؟ قال: يرد الله إلي بصري، فأبصر به الناس، قال: فمسحه فردّ الله إليه بصره، قال: فأي المال أحب إليك، قال: الغنم، فأعطاه شاة والدا.

فأُنتج هذان، ووُلد هذا، فكان لَهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من بقر، ولهذا وادٍ من الغنم.

ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته فقال: رجل مسكين تقطعت به الحبال في سفره، فلا بلاغ اليوم إلاّ بالله ثم بك. أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعيراً أتبلغ به في سفري، فقال: إن الحقوق كثيرة. فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيراً فأعطاك الله..؟ فقال: لقد ورثت كابراً عن كابر. قال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأقرع في صورته وهيئته فقال له مثل ما قال لهذا، فرد عليه هذا فقال: إن كنت كاذباً فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين وابن السبيل، وتقطعت به الحبال في سفره، فلا بلاغ اليوم إلاّ بالله ثم بك. أسألك بالذي ردّ عليك بصرك شاة أتبلّغ بها في سفري، وقال له: قد كنت أعمى، فردّ الله بصري، وفقيراً فقد أغناني، فخذ ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله.

فقـال: أمسـك مالـك فقـد ٱبْتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك» .

فتح الباري ٦/٥٠٠ وانظر صحيح مسلم ٣/٢٢٧٥



كانوا ثلاثة يشار إليهم بالبنان!

ومن ذا الذي لا يعرفهم وقد جمعوا ثلاث عاهات يندر أن يأتلف أصحابها؟ كانوا ثلاثة: أبرص وأقرع وأعمى، وكانوا على مودة.. كأنما جمع بينهم البلاء!!

وصار الناس إذا رأوا واحداً منهم مقبلاً أيقنوا أن سيرون الآخرين! فإنهم لا يكادون يفترقون إلّا في المساء حين يأوي كل حي إلى مبيته.

وكان الناس يعجبون من هذا الجمع اللافت للأنظار! وكثيراً ما كان بعض الأطفال يلاحقونهم ويسمعونهم من الكلام ما يثيرهم! فيعدو الأقرع وراءهم مهدداً أن يلمسهم فيعديهم بمرضه الذي يذهب بالشعر ويقبّح المنظر!!

ويغيظهم الأبرص فيكشف ما استطاع من جلده لينفرهم وينأى بهم بعيداً.. ويُسكت ألسنتهم.. ويظل الأعمى في مقعده.. لا يتحرك!! ويهتف بصاحبيه أن يَدَعا الأطفال وشأنهم.. فإنهم هكذا فُطروا.. ولن يدَعوا

عبثهم حتى يتجاوزوا سنّ الطفولة!!

ويرجع صاحباه لاهثين شاتمين... لاعنين! ويشكو بعضهم إلى بعض ما هم فيه من بلاء وعناء... ويقول قائل منهم:

ـ لم ابتُلينا نحن من دون الناس بهذا البلاء الذي جعلنا أضحوكة للأطفال... ونأى بنا عن مجالس الرجال؟! فهذا يقول دعوه.. إنه مسكين أعمى! فيقابل العمى بالشفقة القاتلة!! وذاك يقول: لا تقتربوا من هذا الأقرع!! وحسبكم من مرضه منظره!! ويقول ثالث: أعرضوا عن هذا الأبرص الذي يؤذي العين رؤية جلده!

ويظل الأبرص والأقرع في شكوى.. وصاحبهم الأعمى يهدّىء من خاطرهما ويقول: إن رضيتما أو سخطتما فلن يكون إلّا ما كان! وهل يدفع الجزع والسخط عنّا ما نحن فيه؟! ليس لنا إلّا أن نستعين بالله؟ فبيده وحده الشفاء!

وتهدأ نفساهما ويستشعران شيئاً من الرضى بقضاء الله.. ولكن في القلب حسرة لا تبرد جمرتها! وفكر الأعمى في حاله وحال صاحبيه، ورأى ما هم فيه من العنت والأذى، فاقترح على صاحبيه أن يجفوا مجالس

الناس، وأن ينتحوا مكاناً قصياً. . يذكرون الله فيه. . ويدعونه أن يكشف عنهم الضرّاء. .ووقع الاقتراح منهما موقعاً حسناً. .

لقد كفاهم بعض المحسنين الجهد والتعب. . فهم يُجرون عليهم من الرزق ما يحفظ عليهم الحياة!

وكثيراً ما كانت الأمنيات تطوف في رؤوسهم. . .

وكم كان يحلو لهم أن يعيد بعضهم على بعض سؤالاً لا يملون منه:
ـ ماذا تتمنى؟!

ويسترسل كل منهم في أمنياته. . .

أما الأعمى. . . فقد قطعت صلته بالدنيا. . . إلّا ما يلمسه بيده. . أو يسمعه بأذنه. . أو يشمّه بأنفه! ولم يكن ذلك يكفيه. . كان يسمع عن الليل والنهار. . والشمس والقمر. . . والأبيض والأسود والأحمر. . . فيشفق على نفسه أن قد حُرم من تلك النعم التي يرفل فيها المبصرون! ويتمنى أن يرد الله عليه بصره!! وإذا كان ذلك. . فإن الدنيا ستقبل عليه، سيجد عملاً يكفيه صدقة الناس. . . وسيلقى الزوجة التي يقوم على رعايتها. . .. ولا يكلّفها من أمرها رهقاً!!

ويمضي في أمنياته يسردها على صاحبيه! وينهي كلامه بزفرة طويلة. . . ويقرع الأرض بعصاه. . مرات عديدة!! ثم يقول: الحمد لله! لقد صدقت أمي عندما سمّتني صابراً!! وأنا أرجو أن أكون من الصابرين! ومتاع الدنيا زائل. . وأرجو العوض من الله في الجنة التي فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت. . ولا خطر على قلب بشر!!

وكأنما كانوا ثلاثة من الممثلين. . . يؤدي كل منهم دوره. . . ثم يفسح المجال للآخر!

وينبري الأقرع قائلًا: وهل يُسأل مثلي عن أمنيته؟! إن أمنيتي مكتوبة على جلدي! وفي منبت كل شعرة سقطت من رأسي!

آه لو يعود إلي الشعر فيستر قرعتي!! ويخفي سوأتي. . وهل جعلني منبوذاً بين الناس إلّا القرع؟!! إذا أقبلت عليهم أجفلوا مني! وابتعدوا عني مسافة طويلة. . كأنما يخافون أن ينقل الهواء إليهم العدوى. . . ! آه لكم أتمنى لو انتشر هذا الداء بين الناس جميعاً. . إذاً لصرت واحداً منهم. . وخفيت بينهم. . . ! آه لو يكون ذلك في غمضة عين!!

ويقرعه الأعمى بعصاه.. ويقول له: اتق الله يا جحود!! ولا تتمنّ الشرّ لغيرك! صحيح أنك أقرع.. ولكن يكفي أنك مبصر! فما رأيك لو أنني تمنيت لك العمى...؟! وتطيّر الأقرع من كلام الأعمى.. وهتف به: اسكت! ولا تسمعني هذا القول.. يكفيني ما بي!! إنما هي أمنيات نعزّي بها أنفسنا... ألا ترون أن الناس يحلمون بالليل.. ونحن نحلم في النهار.. بصوت مرتفع!

ويقطع الأبرص حوارهما فيقول: لقد طال بكما الحلم حتى نسيتماني، ألا تريدان أن تستمعا إلي وأنا أقص عليكما حلمي؟!

ويغمزه الأعمى بطرف عصاه ويقول: هات ما عندك من الأحلام التي لا تحتاج إلى تأويل!! فما نحن بتأويل الأحلام بعارفين!

ويدفع الأبرص العصا بطرف يده ويقول: بل هي أحوج الأحلام إلى التأويل! آه لو استيقظت ذات صباح وإذا بجلدي قد ذهب ما به من البرص! وعاد إلي اللون الحسن الذي يروق لعيني قبل أن يروق للناس!!

أتصدقان؟ إنني لا أطيق النظر إلى نفسي في المرآة!

وإذا شربت ماءً فإنني أغمض عيني حتى لا أرى صورة وجهي في صفحة الإناء!!

آه ما أقسى الحياة! ليت أصحاب الجلد الحسن يذوقون بعض ما أذوقه من أذى النفس. ولكن هيهات! ليس من المكتوب مهرب!

ويطول بهم المجلس .. وتمتدّ الأمنيات.. والحسرات.. ثم ينظر الأبرص والأقرع إلى بعضهما ويقولان: هيا بنا! لقد انقضى النهار أو كاد... فلنمض.. و من الغد ملتقانا! ويقوم الأعمى في أثرهما!

* * *

ومرت الأيام وهم على ذلك.. وماذا يملكون غير أحلام اليقظة.. يجترونها.. ويعيدونها مرة بعد أخرى! لا يملّون!

وبينما كانوا في خلوتهم ذات يوم إذ بشخص يقبل عليهم من بعيد! وعجب الثلاثة من هذا الرجل!! فهو شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يعرفه أحد منهم، ولا يُرى عليه أثر السفر!

ونظر الأبرص إلى الأقرع وقال: أتعرف هذا القادم؟!

ـ لا . . إنني لم أره من قبل!

ـ لعله غريب طارىء على بلدنا . . ويريد أن نهديه السبيل!

ـ انظر إنَّه يقترب منا .

ـ ألا تأنس إليه وهو يدنو! آه . . . ! لقد مرّ علينا زمن طويل لم نحسّ فيه بأنس إقبال الناس! فلا نكاد نراهم إلّا نافرين جافين!!

واقترب الرجل منهم وحيّاهم . . . بل تقدّم منهم وصافحهم وشدّ على أيديهم! وهم في ذهول ممّا يرون! وكاد الأقرع يردّ يده وهو يهمّ بالسلام عليه!! ويقول له: إنني مريض . . أخشى عليك من العدوى!

ولكنه كتم ذلك وراء شفتيه!

وجلس معهم ذلك الغريب الذي تبدو عليه سمات الصلاح، وأنسوا إليه، ومدّ يده إلى (زوّادة) معه . . فأكلوا طعاماً لذيذاً لم يألفوه من قبل! وعجبوا أن القليل منه قد ملأ بطونهم . . فأحسوا بالشبع سريعاً! وتنبه الأبرص والأقرع إلى أن الرجل الغريب لا يشاركهم الطعام! فدعوه إلى ذلك . . فتبسّم وقال: بل كلوا أنتم هنيئاً مريئاً! وشاع في نفوسهم فرح غريب .

وأقبل عليهم ذلك الرجل بعد أن أكلوا وشبعوا فقال: مالي أراكم في خلوة لا تخالطون الناس؟!

قالوا بلسان واحد: أو لا تبصر ما نحن فيه؟ لقد جفانا الناس فآثرنا اعتزالهم! وها نحن نأوي إلى هذا المكان كل يوم نعيش في لذيذ الأحلام وخيال الأمنيات!

فتبسم الرجل وقال: ما رأيكم لو أصبحت أمانيّكم حقائق؟

قال الأعمى: بالله عليك يا أخانا اتركنا في أمانينا! ولا تفسدها علينا بكلامك! وهل يمكن لهذه الأحلام أن تتحقق؟

قال الرجل: أليس الله على كل شيء بقدير؟!
قال الأعمى: بلى! وأنا على ذلك من الشاهدين.
فقال الرجل: أولم يجعل الله لكل داء دواءً؟
قال الأقرع: إلّا ما نحن فيه من الأدواء.
قال الرجل: بل إن عندي شفاءكم بإذن الله!!

وأقبل على الأعمى فوضع يده على رأسه ومسح على عينيه، ودعا الله عز وجل له وفعل مثل ذلك بصاحبيه. . مسح على رأسيهما ودعا لهما، وكل منهم ينظر إلى صاحبه

ويعجب من هذا الذي يزعم أن أحلامهم ستصبح حقائق! وما كادوا يصدقون.

ومضى عليهم حين من الزمن، وقد أخذتهم سنة من النوم لم يدروا أطالت أم قصرت.

وفتح الأعمى عينيه ولم يكد يصدق! فأغمضهما.. وكأنه في حلم... ثم فتحهما ونظر من حوله فرأى رجلين تامّي الخلقة كأحسن ما يكون الرجال..

نظر إليهما وهو يوقظهما من النوم وقال: ألم تريا الأبرص والأقرع؟! لقد كانا هنا منذ قليل!! وبُهت الرجلان وهما يفتحان أعينهما، ونظرا في الرجل الذي يوقظهما.. وصرخا! هل يمكن هذا؟!

ونظر كل منهما إلى الآخر. وأخذ يتحسس جسده.. وهتفا: هل أنت الأعمى؟!

واحتضن بعضهم بعضاً..! لقد تحققت الأمنيات.. ولكن أين الرجل الذي أطعمنا ودعا لنا؟!

نظروا حولهم.. ووقفوا يدققون النظر. هنا وهناك.. ولكنهم لم يعثروا له على أثر!!

وأقبل الثلاثة على البلدة. ولم يكد الناس يعرفونهم

إلا بملابسهم التي كانوا معتادين عليها. . . ! وانتشر الخبر بين الناس انتشار الضياء في الأفق عند الصباحَ! وهم بين مصدق ومكذب. . وتقاطروا من أنحاء البلدة يستطلعون الخبر.

وبات أهل البلدة. . وليس لهم حديث إلّا خبر هؤلاء الثلاثة. . . يخوضون في أمرهم. . ويخترعون قصصاً عن شفائهم!

ولم يستطع الأصدقاء الثلاثة أن يناموا. . فقد كان لما حلّ بهم من الشفاء ما منع عنهم الغمض. . . فأووا إلى بيت الأعمى السابق. . وأخذوا يخوضون في أمر أنفسهم مثل الخائضين. . . !

ولم تزل في نفوسهم وحشة من الناس. . وفي الناس من حالهم جفوة! صحيح أن الناس قد أقبلوا عليهم. . . ولم يولوا عنهم مدبرين. . ولكنهم لم ينسوا بعدما كان من أمرهم معهم سنين طويلة!

وشعر الأعمى بحنين يشده إلى الخلوة التي كان يلتقي فيها بصاحبيه. . فحثهما على المرور بذلك المكان. . واسترجاع ذكريات الأمس. . وليتثبتوا من أن أحلام اليقظة قد صارت حقيقة ملموسة. . ووجد في

نفسيهما مثل ما في نفسه من الحنين!. وإن يكن قد لمح في وجه صاحبيه تغيّراً!! صحيح أنه حديث عهد بهذين الوجهين! ولكن الصورة التي رسمتها أذناه تختلف شيئاً ما عمّا تراه عيناه.

ومضى الثلاثة إلى خلوتهم.. انسلوا من البيت مع طلوع الفجر...

قال الأعمى السابق! وهو ينظر إلى الليل المدبر والصبح المسفر: ما أجملها من متعة حرمتها عمراً طويلاً!!

قال الأبرص السابق!: صحيح أنك حرمتها.. ولكن إلى البلدة... كم من المبصرين فيها يستيقظ ليمتع بها؟!

ووصل الثلاثة إلى مكان خلوتهم.. وأخذوا يرقبون تحولات الكون... وتغيرات الألوان... وأخذت قلب الأعمى السابق رعشة وقال: ألا تريان أن حالنا كحال هذه اللحظات؟! كأنما خرجنا من ليل إلى نهار! آه ما أجمل النهار والنور والإبصار!

وأشرقت الشمس رويداً... رويداً.. كأنها تنهض من فراشها متثاقلة.. مغمضة العينين فتسمح لعيون البشر أن تجتلي طلعتها.. فإذا ما زال الوسَنُ من عينيها وفتحتهما

فلا بدّ للعين النـاظـرة في وجهها أن تشيح عنها. . كيلا يخطف بصرها!

وبينما هم في هذه السبحات التي أنستهم ما جاؤوا إليه من استرجاع الذكريات. . . إذا بهم يرون رجلاً مقبلاً ومعه ناقة وبقرة وشاة! وما إن لمحه الأبرص والأقرع حتى انـطلقـا نحوه. . واحتضنـاه وأقبلا يقبلان يديه. . ووقف الأعمى السابق دهشاً! ففطنا لموقفه وقالا: إنه هو! ! وأدرك ما قصداه. . فأقبل يصنع صنيعهما. . وانطلقت ألسنتهم بالشكر والثناء عليه. . وسؤاله عن أمره وحقيقته؟ !

فقـال: إني عبـد الله. . أرسلني بالشفـاء إليكم. . وعنـدي لكل منكم هدية. . وقال للأبرص السابق: ماذا تختـار ممـا ترى من الأنعام؟ فنظر وقارن. . فاختار أكبر الثلاثة. . . ناقة عُشراء!

وقبـل أن يختـار الأقـرع السـابق قال الـذي كان أعمى. . . : إني أختار الشاة!

فقال صاحبه الأبرص: وهل كنت تظنني أدعك تأخذ البقرة؟ !

فأوجس الأعمى في نفسـه من كلمة صاحبه! ولكنه كظم غيظه وقـال: الحمـد لله على نعمتـه! عافية في

البدن. . وشاة والد! هذا فضل عظيم.

وقال لهم الرجل الغريب: لقد انتهت مهمتي. . . وآن لي أن أنصرف. . وليبارك الله لكم فيما أخذتم. . .

* * *

ومرت أيام وشهور. . وسنون! وأخذ الماضي يبتعد رويداً رويداً. . . حتى صار كأنه كابوس ليلة أفاق منها هؤلاء الثلاثة!

وبورك لهم فيما أُعطوا. . . وامتلأ لكل منهم وادٍ من الأنعام. . . وصارت بيوتهم محط الأنظار. . ومشدّ الرحال. . وصار الذين كانوا بالأمس يعرضون عنهم. . مقبلين!

ومع هذا. . لزم كلاًّ منهم ما كان فيه من عاهة! فما برح الناس يقولون: جاء الأقرع. . . وذهب الأبرص. . وأقبل الأعمى!

وكان الناس يجدون من الأبرص والأقرع صلفاً وجلافة واستعلاء! وكأنهما كانا ينتقمان لنفسيهما من الناس. . ومن ماض لا يحبان ذكره! ولكن مرارته ما زالت في أعماق النفس!

وكان الأعمى السابق، سمح النفس، طيب القلب، ليّن المعشر، وأخذ الناس في مجالسهم يذكرون كلاً منهم بما يستحق. . وما يجدونه منه من خلُق! وكان كلام الناس يصلهم. . فيزداد كلٌ في طريقته.

. . . .

وحان يوم الابتلاء. . . .

. . . .

جاء إلى الذي كان أبرصَ رجلٌ في هيئته التي كان عليها قبل أن يمنّ الله عليه بالشفاء والمال. . . وجاءه مِن خدمه مَن يهمس في أذنه أن رجلاً أبرص يريد لقاءه! فانتفض انتفاضة المصروع.

ـ أبرص يريد مقابلتي؟ وماذا يريد مني؟ اصرفوه عني بكل سبيل! وكأنما عاد الماضي في نفسه غضّاً طرياً! ودارت في رأسه ذكريات الماضي بمرارتها. . . فلم يلن قلبه. . ولم يشكر نعمة ربه. . .

فقال له خادمه: يا سيدي: إنه يأبى إلاّ لقاءك. . . !

فنهض من مجلسه وأقبل ينظر إلى الأبرص وهو يتميّز من الغيظ. . وهو يهمس:

ـ من بعثك إليّ . . ماذا تريد مني؟ لماذا جئت إليّ أنا؟!

ولولا أنه كان يقرف من البرص لهجم عليه . . وأوجعه ضرباً!! وجاءه صوت الأبرص . . وقد قرأ في وجهه ما يكتم في نفسه:

ـ على رِسْلك يا أخي: لماذا تنقم مني؟ إنما هو ابتلاء ابتلاني الله به . . ولم أسع أنا إليه . . فخفف عني ما أنا فيه . . ومُنّ عليّ بشيء مما آتاك الله من الأنعام . . .

ـ ومن قال لك إنني ابذّر أموالي عن يمين وشمال؟! أأتعب أنا وأسعى ثم أعطيك وأمثالك ثمرة جهدي؟! اذهب واعمل . . واكسب طعامك من كسب يديك!

ـ وهل هناك من يفتح باب العمل لأبرص؟ هل تأذن لي بالعمل معك؟ أنا مستعد لهذا؟!

وأحس الأبرص السابق أن لسانه قد زل بهذا القول الذي التقطه هذا الأبرص! فها هو يتحول من طلب الصدقة إلى طلب العمل! وهل فقد عقله ليضع أمامه صورة ماضيه؟ وامتد لسانه إلى الأبرص بالسباب المقذع . . ونادى في خدمه أن يخرجوه من مزرعته . . ولو جثّة هامدة!!

. . . وهنا ارتفع صوت الأبرص ليقطع عليه صراخه . .

ـ اسمع يا هذا المستكبر المستعلي . . اسمع كلمات لا بد لك منها . . لتكون عبرة لغيرك ممن لا يشكرون نعمة الله . . لقد غرّك ما أنت فيه من الفضل . . فلم تشكر حقه . . أتظن أن الناس نسوا أنك كنت أبرص مثلي . . فشفاك الله وآتاك هذا المال؟ ألا تدري بم يتحدثون عنك؟!

ـ إنك مخرف يا هذا!! ومفترٍ وقليل أدب!

أتزعم أني كنت أبرص؟ ألا يكفيك ما أنت فيه من عاهة حتى تجمع إلى عاهتك سوء خلق فتكذب؟! إنّ ما أنا فيه من المال والنعيم ورثته كابراً عن كابر! . . . وها هو جلدي . . . انظر إليه أترى فيه أثر برص؟ وهل سمعت بأبرص شفي من مرضه؟!

واستدار الأبرص مولياً ظهره لصاحبه الهائج الذي كان يرعد ويزبد . . استدار وهو يرفع صوته بكلمات وقعت من سمعه وقع المجرز . .

ـ إن كنت كاذباً . . . فصيّرك الله إلى ما كنت . . .
إن كنت كاذباً . . . فصيّرك الله إلى ما كنت . . .

إن كنت كاذباً. . . فصيّرك الله إلى ما كنت. . .

ومضى وأصداء دعائه تتردد في الوادي. . والخدم ينظر بعضهم إلى بعض. . وصاحب الوادي يرتعد من الدعاء!!

وما اختفى ذلك الرجل. . حتى أخذ جلده يحكّه. . . فارتاع. . وبدأ يهرش جسده! وصاح. . . هاتوا لي المرآة. . . هاتوا المرآة. . وخدمه ينظرون إليه. . . ويتراجعون. . وهو يصيح. . . مالكم لا تستجيبون؟ مالكم تنظرون إليّ هكذا؟!

وأخذ ينظر في يديه وما استطاع من جسده. . فإذا الدعاء تسري آثاره. . والبرص يلوح في جلده. . ويشتد. . ويمتدّ!!

وبدأ يصيح. . . ردّوا الأبرص. . . ردّوه! اعطوه ما يريد. . . دعوه يأخذ كل ما عندي. . وليدع لي بالشفاء. . مما أنا فيه!

لا أريد أن أعود أبرص من جديد! لا أريد!!

ومضى يصرخ هائماً على وجهه في الوادي. . . والإبل تفرّ من بين يديه!

* * *

وكذلك كانت حال صاحبه ا الأقرع!! جاءه رجل على هيئته قبل أن يعافى.. وكان منه ما كان من صاحبه.. فأصابته دعوته.. وعاد كما كان من قبل!! وكأنما كان الذي عاشاه من الشفاء والنعمة حلماً لذيذاً.. لم يستطيعا الإمساك به! وعادا إلى درب الضياع من جديد!

والتفت كل منهما إلى صاحبه وهو يقول: منذ كم لم نلتق؟!

- منذ ذلك الحلم اللذيذ الذي حلمنا به.. منذ أن جاءنا ذلك الغريب فعوفينا من مرض.. وغنينا من فقر! ولكن ما لنا لا نرى صاحبنا الأعمى؟! أما يزال حلمه ممتداً؟!

ومضيا نحو واديه الذي ينزل فيه بغنمه.. فإذا هو عامر بالشياه.. وإذا هو في نعمة سابغة.. إنه ليس الأعمى الذي نعرف.. واقتربا في حذر من واديه.. وفرّ من بين أيديهما الرعيان والشاء... وأقبل صاحب الوادي عليهما.. لم يقذرهما، ولم يهرب مع الهاربين...

- ماذا فعلتما بنفسيكما؟! أأنتما صاحباي القديمان؟

و نظر كل منهما إلى صاحبه.. أأنت الأعمى؟

- بل أنتما ... الأقرع والأبرص! وأما أنا فقد كنت الأعمى.. ومنّ الله عليّ نعمته فعرفت حقها.. وشكرت!

ولكنكما ابتليتما بالنعمة.. فطغيتما!! أتعلمان من الذي جاءكما في صورة الأبرص والأقرع؟! إنه هو! ذلك الرجل الغـريب الـطيب الـذي أطعمنـا.. ودعا لنا... وجاءنا بالأنعام!! لقد جاءكما مبتلياً لكما.. فلم تكونا من الشاكرين!

وبهت الرجلان مما سمعا...

ـ هل لنا من سبيل إلى ما أنت فيه من النعيم؟ هل لنا من عودة إلى الشفاء؟! ولئن منّ الله علينا.. لنكونن من الشاكرين!!

ـ الأمر لله وحده! والحمد لله رب العالمين.



مِنْ أعمال المؤلِّف

١ ـ القدس تصرخ (شعر)، دار البيان، الكويت، ١٩٦٩م.

٢ ـ قصائد للفجر الآتي (شعر)، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨١م.

٣ ـ مشاهد من عالم القهر (شعر)، دار البشير، عمان، ١٩٨٣م.

٤ ـ أصداء الغزو المغولي في الشعر العربي، مكتبة الأقصى، عمان، ١٩٨٣م.

٥ ـ الغزو المغولي أحداث وأشعار، دار البشير، عمان، ١٩٨٤م.

٦ ـ الاتجاه الإسلامي في الشعر الفلسطيني الحديث، دار البشير، عمان، ١٩٨٤م.

٧ ـ خصائص القصة الإسلامية، دار المنارة، جدة، ١٩٨٨م.

٨ ـ من قصص النبي ﷺ، دار البشير، عمان، ١٩٩٢م

٩ ـ شخصيات قرآنية، دار البشير، عمان، ١٩٩٢م



محتويات الكتاب

